أوليات

[النقد الأدبي ... قراءة ثانية]

أ.م.د. علي جبار جلوب العيساوي

وزارة التربية/ مديرية تربية بابل

الملخص

قد يكون النقد الأدبيّ من المواضيع التي طُرقت كثيرًا من قِبل الباحثين هنا وهناك، إلَّا أنَّ ما قُدِّم من آراء نجدها قد تضاربت في الحجَّج والبراهين التي يقف عندها كلُّ ناقدٍ وقد يرجع هذا إلى أنَّ موضوع بدايات النقد من الصعوبة البتّ بها؛ لما يحمله هذا الموضوع من خطورة وأهمية بالوقت نفسه، فقد يعتمد على كلِّ رأي مجموعة مُعيَّنة ترجع الى مدرسة لها رأيها في طفولة النقد العربي، وهل أنَّ النقد ولد مع الشعر أم بعده؟ وهل تكون احتماليات أن تكون هنالك قوانين ومعايير قد دُرست أو وضعت لدى نقاد العصر الجاهلي أو شعرائهم؟ والى مَن يرجع الفضل في وصول الشعر على هذه الهيئة المتكاملة نوعا ما؟ وعلى يد مَن درس من اشتغل في مسالك النقد آنذاك؟ ولماذا تضاربت الآراء في ولادة النقد الأدبي؟ كلُّ هذه الأمور والتساؤلات سوف نحاول الوقوف على حيثياتها في مضان هذا البحث .

الكلمات المفتاحية:

النقد، الطفولة، الشعر، الأحكام، الذوق.

(The Basics of Literary Criticism... A Second Reading)

Asst. Prof. Dr.Ali Jabbar Chloop AL-Essawi

Abstract

Literary criticism may be one of the topics that have been discussed a lot by researchers here and there, but the opinions presented, we find, have conflicting with the arguments and proofs that each critic stands for. At the same time, it is important, as it may depend on each opinion of a certain group that goes back to a school that has its opinion on the childhood of Arab criticism, and was it born with poetry or after it? Are the possibilities that there are laws and standards that have been studied or developed by the critics of the pre-Islamic era or their poets? To whom is the credit for the arrival of poetry in this somewhat integrated form? And by whom did he study who worked in the monetary paths at that time? Why conflicting opinions in the birth of literary criticism? All these things we will try to find out their merits in the fluorescence of this research

Keywords:

criticism, childhood, poetry, judgments, taste.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة وأتم التسليم على نبي الرحمة محمَّد الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الأخيار المنتجبين .

أما بعد..

فقد شكّل النقد ثيمة أساسيَّة في الأدب العربي قديمًا وحديثًا، وكان محطّ أنظار كثير ممَّن اهتموا بهذا الجانب من الفن، وعلى الرغم من أنَّ أوليات النقد سبّبت إشكالًا كبيرًا في الوقوف على بدايات حقيقية لهذا النقد، إلَّا أنَّ بعض هذه الرؤى قد لاقت القبول من الجماهير المتابعة لهذه القضية التي أعدها شائكة؛ بسبب ما يحيط بها من حيثيات تتطلب من الباحث رؤية لأكثر من زاوية، لتحديد مصير هذا الفن الذي جائنا متكاملا بعض الشيء.

وممَّا لا شكَّ فيه من أنَّ مَن دخلوا في مجال البحث عن البدايات الحقيقية لهذا الفن قد دعّموا آراءهم بما يمكّنهم من أن يقفوا أمام خصومهم أصحاب الرأي المخالف، فكانت اتجاهات كلّ مجموعة تحاول أن تجذب كفة الموازنة إليها، عَبر ما يذهبوا إليه من حجج وأدلة قد تكون مقبولة عند بعضهم ومرفوضة عند آخر .

فالنقد يعده الباحث موضوع مهم تدخل في كثير من المجالات التي تحدد مصير الشعوب وتاريخها وإرثها وديوانها، لذا كان من الواجب الوقوف مليا أمام هذا الجانب من الفن، راجيا التحقق من بداياته التي باتت الآراء متباينة في تحديدها، وقد أضيفُ شيئا لِما سبقني فيه علماء أجلاء، أو قد أفتحُ بصيصَ ضوءٍ من كوة إلى مَن يأتي بعدي للبحث في الموضوع نفسه، أو قد أخفِق فيما أتيتُ به، وهذا حال القاصرين.

ومن أجل الخوض في بحث كهذا، لابد أن تُثار بعض الأسئلة ونحاول الإجابة

عليها عَبر ما موجود عند بعض الخائضين في هذا المجال، والنظر إلى تلك الأدلة من زاوية أخرى، ومن هذه الأسئلة: متى بدأ النقد؟ وكيف كان النقد؟ ومن كان الناقد؟ وكيف عُرف النقد؟ وهل يُعد النقد الذي وصلنا هو بداياته الحقيقية؟ وهل البيئة تعد انعكاسا حقيقيا لاتجاهات النقد؟ وهل تدخل أهواء الناقد في تحديد وجهة النقد؟ وهل النقد صاحب الشعر؟ أو جاء بعده؟ وهل الناقد الشاعر يختلف عن ناقد الشعر في إصدار الأحكام النقدية؟ وهل معيار الجودة هو المعيار البارز في تحديد الحسِن من الرديء؟ وهل تَعد الخبرة من أساسيات النقد؟ وأسئلة أخرى سوف أحاول أن أُجيب عليها في مظان هذا البحث الذي ادّعت الدراسة فيه أن يقسّم على محورين، ووقفة قصيرة مع أحد الكُتّاب البارزين في بدايات النقد الأدبي في العصر الجاهلي.

أما المحور الأول فقد حمل عنوان(الكشف في تحديد المصطلح عن بدايات النقد) محاولا أن أجد ما يعينني في العثور على أمور أدعّم بها آرائي.

وجاء المحور الثاني بعنوان(مراحل النقد الأدبي) وهي بالحقيقة مرحلتين أساسيتين أخترتهما في البحث عن أولية النقد في العصر الجاهلي.

وكانت الوقفة مع الكاتب الكبير(طه أحمد إبراهيم) الذي وجدته يعيش صراع مرير في الوقوف على هذه المسئلة، وكثرة الآراء في طفولة هذا الفن، والحجج التي دعّم بها أحكامه.

المحور الأول: الكشف في تحديد المصطلح عن بدايات النقد

عادة ما يكون التعريف في أي مصطلح يبيّن ماهيته، ليتمكن الآخر من الوقوف على تفسير يقرّبه للمعنى الحقيقي للمصطلح، أو يّبين جذور ذلك المصطلح عند المعجميين وأهل اللغة، وسوف أحاول أن أبحث في طيات هذا التحديد عن أجوبة لأسئلة قد أطلقتها في المقدمة علّي أصل إلى ما أُريد.

فالنقد لغةً عند أغلب أصحاب المعاجم لاتخرج من كونها تمييزا «وقد أخذ

العرب كلمة النقد من قولهم نقد الدرهم والدينار أي بيّن رديئه من جيده وسليمه من زائفه»[١] وهذا الكلام يقود إلى أن الناقد يجب أن يكون صاحب خبرة ودربة لكي تمكنه من التمييز بين جيد الشعر من رديئة، وإن كل من تعرض إلى تعريف النقد لغة نجده قد استشهد بما قاله سيبويه[٢]:

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة

نفي الدراهيم تنقاد الصَّيارِيف[٣]

وهنا يثار السؤال: هل الصيرفي أو الناقد عالم بمادة الدرهم والدينار الذي ميّز بين جيده وزائفه؟؟ بمعنى آخر هل النقد قديما -والذي نفهمه من هذا التحديد- كان يختص بأُناس معينين؟؟، وهل جاء النقد بعد الشعر أو معه؟؟ .

فإذا كان النقد في العصر الجاهلي يختص بمجموعة خاصة، لذا يتوجب أن يكونوا قد عرفوا مادة الشعر، ولغته، وفنونه، وأغراضه، وعروضه، وعاموده، وانزياحاته، وبهذا يكون قد درسوا علما كاملا بعد ظهوره أو مع ظهوره، لعلمهم بأدواته، فوجب ظهور المادة الخام، ومن ثم دراستها كما فعل ناقد الدراهم.

فقد أُجيب عن هذا السؤال بأن النقد يصدر من شاعر أجاد الشعر وعرفه وخبره، وإذا أردت أن أدعم الكلام بالدليل أقول: إن العرب كانت تضرب قبة للنابغة الذبياني في سوق عكاظ، ليعرضوا الشعر عليه من كافة البلدان والقبائل، بلهجة موحدة هي لهجة قريش[٤]، وكان يميّز بين الجيد والرديء؛ لأنه كان شاعرا،

(١) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، المعارف الاسكندرية، القاهرة، ٢٠٠٢م: ١١ .

(٢) أصول النقد الادبي، احمد الشايب، ط١٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م: ١١٤ .

(٣) شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني(ت٧٦٩ه)، محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢٠، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٠م: ٢/ ١٠٢.

(٤) ينظر، تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع عشر، طه احمد ابراهيم، ١٩٣٧م:١٦ .

وتأتي رصانة شعره مما يرِد عليه من جديد في كل عام من شعر، فالممارسة والدربة أعطته الفرصة للتعرف على مادة الشعر وجوهرها .

وهذا ما أُتفق عليه في وجوب أن يكون الناقد يحمل من الخبرة ودائم التجربة[١]، ما يجعله يميّز بين الشعر الذي يستحق أن يروى أو ينقل ، وبهذا يكون النقد نقدا موضوعيا صادرا من عالِمٍ عارِفٍ بأصول الشعر وقوانينه، والخبرة قد تكون متعددة الجوانب، منها ما هو مولود مع الناقد وتعد موهبة، ومنها مكتسب بالدربة والممارسة [٢].

وإذا ما نظرنا الى النقد في الاصطلاح، وجدنا أنه لا يبتعد كثيرا من نقد الدراهم والدنانير، في الوقوف على جيدها ورديئها، ولا يخرج عن((معنى الفحص والموازنة والتمييز في الحكم))[٣]، أي هو الحكم على النص الأدبي وتقديره((تقديرا صحيحا، وبيان قيمته في ذاته، ودرجته الأدبية بالنسبة إلى غيره من النصوص، على أن يكون ذلك مستندا إلى الفحص الدقيق، والموازنة العادلة، والتمييز المعتمد على المعرفة الصادقة، ليكون الحكم آنذاك قريبا إلى الصحة إلى حد ما))[٤]، وهذا التعريف يجعلنا أمام سؤال أظنّه محيّرا، هو هل كان في العصر الجاهلي مدارس أو حلقات تدرس النقد وكيفيته؟؟ إذًا ماذا نسمي حكم أم جندب مع زوجها امرئ القيس وعلقمة الفحل؟ وقد لا يختلف اثنان على أن حكمها كان قائما على مقاييس دقيقة من وحدة الروي والغرض والقافية لتكون الموازنة عادلة[٥].

(١) ينظر، الاتجاه الاخلاقي في النقد الادبي حتى نهاية القرن السابع الهجري، محمد بن مريسي الحارثي، مطبوعات نادي مكة الثقافي الادبي، ١٩٨٩م: ٣٦ .

(٢) ينظر، تاريخ النقد الادبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول، منشأة المعارف، الاسكندرية، ٢٠٠٢م: ١٢ .

(٣) اصول النقد الادبي: ١١٥ .

(٤) النظرية النقدية عند العرب، هند حسين طه، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١م: ٢١ .

(٥) ينظر، م.ن: ٢٢ .

لا أستطيع أن أغفل عن هذا الحكم النقدي المتكامل الموضوعي في العصر الجاهلي، إلا أن يُطعن في صحة الرواية، وهذا يُحيل إلى التعصّب وما إلى ذلك من حُجج اتبعها العرب لأسباب عدة منها التباهي بأنسابهم، وأمور اعتادها القدامى، وهذا أمر جائز.

ونذكر الأبيات التي جاء بها الشاعران، والتي على أساسها أطلق الحكم من قِبل أُم جندب، فحينما تنازعا الشاعران في أيهما أشعر، اختارا أم جندب حكما، فأرادت منهما أن يقولا شعرا يصفان فيه فرسيهما على قافية واحدة وروي واحد، فقال إمرؤ القيس:

خليلي مرا بي على أم جندب

تقضي لبانات الفؤاد المعذبِ[1]

وقال علقمة:

ذهبت من الهجران في غير مذهب

ولم يكُ حقا كلّ هذا التجنّبِ[2]

وبعد أن أنشدا القصيدتين واستطردا بعد ذلك في وصف الناقة والفرس، قالت لأمرؤ القيس: علقمة أشعر منك، وحينما طلب السبب أجابت بالحجة والدليل، لأنك قلت:

فللساق ألهوب وللسّوط دِرّةٌ

وللزجر منه وَقعُ أهوج مِنعب[3]

فجهدت فرسك بسوطك ومريته، فأتعبته.

(١) ديوان أمرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط٥، القاهرة، ١٩٥٨م: ٤١.

(٢) شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل، قدم له: حنا نصر الجتي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٣م: ٥٢.

(٣) ديوان أمرئ القيس: ٥١.

وقال علقمة:

فأدركهـنَّ ثانيـا مـن عِنانِـه

يَمُـرُّ كمَـرِّ الرّائـحِ المتحلّـبِ[١]

فهو لم يضربه ولم يتعبه[٢] .

وبعـد هـذا أقول: إذا لم تكن هناك مـدارس لتعلم النقد وأصولـه، فهل نعدّ ما جـاءت بـه أُم جندب موهبة أو صدفة؟؟ إذًا لماذا كان الشـعراء يقصدون شـخصا دون آخر، ولماذا يقطعون المسـافات والأقطار ليعرضوا ما لديهم من نتاج شـعري أمام شخص يعدّوه عارفا بعلوم الشعر وخفاياه؟.

إذًا هـل نسـتطيع الآن أن نقـول – إن صحـت روايـة أُم جنـدب – إن العـصر الجاهـلي لم يخلـو من النقد، وأن بداياته زامنت الشـعر أو جاءت بعده، بحسـب ما قلنـاه مـن أن مـادة النقد هي الشـعر((فالنقد يفـرض أن الأدب قد وجـد فعلا ثم يتقدم لفهمه وتفسـيره وتحليله وتقديره))[٣]، وهذا ما سـوف يصل بنا الى أن النقد قد مرّ بمراحل حتى وصل إلى هذا النضوج، حاله حال الشعر، والدليل ان النابغة الذبيـاني بما يحمله مـن معرفة بأصول النقد، والتي تحتم عليه معرفة الشـعر واتقانه إلا أنـه وقع في قضية الإقواء[٤]، التي خـرج منها بحصانة ورصانة أُضيفت لما لديه من معرفة، ويعدّ هذا الأقواء أثرًا من آثار طفولة الشعر[٥] التي ترتبط بطفولة النقد ونموه فيما بعد.

(١) شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل: ٦٢.

(٢) ينظـر، محـاضرات في تاريخ النقد عند العرب، ابتسـام مرهون الصفار و نـاصر حلاوي، ط٢، بغداد، ١٩٩٩م: ٢٠ .

(٣) اصول النقد الادبي: ١١٦ .

(٤) ينظر، النظرية النقدية عند العرب: ٢٢ .

(٥) ينظر، تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع عشر: ١٩ .

واستنادا إلى ما ذكرناه من اصطلاح للنقد في العصر الجاهلي الذي يعدّه بعضهم بداية للنقد الادبي، أجد أن أغلب الشروط اللازمة في النقد قد توافرت عند أُم جندب من تقدير صحيح للأبيات الشعرية التي جاء بها كلا الشاعرين، وبيان القيمة الذاتية بعيدا عن الأهواء والميول، والدليل أنها نفرت شعر زوجها، وموازنتها العادلة المعتمد على المعرفة المسبقة والصدق في إصدار الحكم، إذًا فهل هذا المستوى من الاتقان في الحكم النقدي سبقته ممارسات أقل منها شأنا؟ .

وإن ما ذُكر عن أُم جندب نستطيع أن نرد به على من يقول: ((إن الذوق الفردي والاجتماعي كان عمدة النقد الأدبي ومقياسه الأول وإليه مرد القضايا والأحكام في تقدير الأدب وبيان درجته الفنية))[1]، فهذا الكلام قد يتفق على بعض الأحكام النقدية التي أُطلقت في العصر الجاهلي هنا وهناك، حينما لا يعلل الناقد سبب جودة الشعر أو ردائته، إلا أن ما وجدته عند أُم جندب من حكم، أو حينما ((قال طرفة بن العبد استنوق الجمل أليس هذا التجريح ثمرة فهم طرفة، ... فإذا هذا حكم معلل مفسر يكاد يكون موضوعيا))[2] لم يركن للذوق من شيء، وهذا يدلل على موضوعية النقد في العصر الجاهلي، وهذا لا ينفي ضرورة اجتماع الذوق والخبرة في الحكم النقدي[3]، لأن الذوق بداية الحكم .

ويبقى الأمر متأرجحا في أن النقد قديما أكان متكاملا أم طفلا كبُر شيئا بعد شيء إلى أن وصل إلينا وقد اعتلاه المشيب، وهل للرواة يدّ في عدم وصول الحقيقة كاملة؟ إذ لم يكن النقد بمعزل عن الشعر الجاهلي الذي كان يُعدّ ديوان العرب وأصح علومهم، والذي وصلنا ناضجا متكاملا، فقد يكون النقد قد لازم الشعر

(١) اصول النقد الادبي: ١١٤ .

(٢) م.ن:١١٣ .

(٣) ينظر، تاريخ النقد الادبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، ٢٠٠٢م:١٢.

الجاهلي منذ نشأته، وهذا ما يتضح من كلام أبي عمرو بن العلاء[١] ((ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافر لجاءكم علم الشعر كثيرا))[٢]، وهذا ما يثبت أن ثَمة اتهاما موجها إلى الرواة وأهوائهم وتعصبهم، ما يجعلنا نُعيد النظر فيمن يقول بعدم وجود نقد في العصر الجاهلي، وإن وجد فهي شذرات هنا وهناك لاترتقي إلى النقد الأدبي المتكامل.

المحور الثاني: مراحل النقد الأدبي.

يرى نقاد الأدب العربي أن النقد قد مرَّ بمراحل إلى أن وصل الى مرحلة النضوج والكمال، وهذا ما أجده منطقيا، فلكل عمل ولادة ونشأة وتتدرج تلك النشأة إلى أن تصل إلى النضوج والكمال، ولا بدَّ أن تُرصد تلك المراحل التي مرَّ بها كل عمل؛ للتمكن من الوصول الى بداياته .

وهذا حال الأعمال التي ظهرت في ظل التدوين أو القريب الى ذلك الزمن، أما في ما يخص موضوع النقد الأدبي في العصر الجاهلي، فإن الأمر قد يكون فيه بعض الصعوبة؛ لأسباب قد تتعلق بالبعد الزمني عن التدوين[٣]، أو عدم الوثوق بالتدوين في بادىء الأمر، والاعتماد على الشفاهية في نقل الرواية، ما أدى إلى تضارب الروايات في نقل المعلومة التي تخص تحديد بداية حقيقية للنقد الأدبي العربي في العصر الجاهلي.

إلا أن أكثرهم قد اتفق على مراحل عامة تلمسوها من طريق استنطاق النصوص الشعرية التي وصلتهم من العصر الجاهلي، التي تدلّ -بحسب ما يقولون- بأنها قد مرت بمراحل قبل النضوج والكمال ، ومن هذه المراحل هي:

(١) ينظر، الاتجاهات الاخلاقية في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع عشر: ٤٤ .

(٢)() – (م.ن): ٤٤ .

(٣) ينظر، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: ١٧ .

١-البدائي الذوقي .

لاشك من أن هناك ملكات للنقد، وأولى تلك الملكات هي الذوق، الذي يُعدّ المناص للدخول إلى نقد النص، والذي لا غنى لأي ناقد عنه[١]، وقد اتفقُ مع من يقول إن((النقد العربي قبل الإسلام كان ذوقيا فطريا عاما، يخلو في أغلب الأحيان من التعليل والتفسير))[٢]، على أن هذا الرأي لا أجده يشمل كل ما وصلنا من نصوص أدبية وشعرية - إن صحت رواياتها - فمنها ما تجاوز الأحكام الذوقية وذهب إلى الموازنة.

وأما ما يتفق مع هذا القول هو ما كان عند بعض نقاد الشعر أمثال النابغة الذبياني الذي كان يحكم وفقا لما يمليه عليه تذوقه للقصيدة الشعرية، فما رواية حكمه في شعر حسان والأعشى والخنساء إلا دليل على بداية الأحكام النقدية في العصر الجاهلي .

وتُعدّ ملكة الذوق سمة تمكن صاحبها من تقدير الآثار الفنية والأدبية الجميلة، وإدراك الجمال الطبيعي والصناعي في القصيدة الشعرية، ويستطيع محاكاة ذلك الجمال، إذًا هو دافع مهم في تهذيب الافكار[٣].

وهناك من يطلق عليها الأحكام الذاتية، المشتقة من الذات وما تستشعره من جمال يُستحسن، من دون المرور على القواعد والقوانين[٤]، ولا أظنّه يقصد القواعد التي هي عليها اليوم بعد أن سُقلت وهُذبت وغُمست بالمصطلحات الغربية ونالت

(١) ينظر، تاريخ النقد الادبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري : ١٤ .

(٢) محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: ١٥ .

(٣) ينظر، اصول النقد الادبي: ١٤٢ .

(٤) ينظر، مقدمة في النقد الادبي، علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٩: ٣٤١ .

ما نالت من أهواء الفلسفة اليونانية .

وهناك من يؤكد فطرية النقد في بداياته التي لم يحدد لها زمن معين، ويقول بالذوق الفطري، ويزاوله جميع الناس، ومن ثم يختص بعضهم بالنقد، وإن للشعراء حضوة في ذلك النقد[١].

وتأسيسا على ما ذُكر أرى أن الذوق هو بداية طبيعية للنقد في العصر الجاهلي، هذا العصر الذي كان الشعر يملأ جميع مناحيه، من سماء وماء وشجر ومذر وكواكب وأقمار، ولا شك من أن هذا الشعر كان يخضع بعد ولادته إلى تقييم من أشخاص لهم باع طويل في الوقوف على الجيد والرديء، وإن الذوق((مزيج من العاطفة والعقل والحس، وربما كانت العاطفة أهم عناصره وأوسعها سلطانا))[٢] في بدايات ذلك النقد الذي استطاع أن يهذب قصائد للآن تدوي في مسامعنا.

فالذوق الفطري ربما قاد أصحابه الى التعميم في الأحكام، أو حتى الارتجال في تلك الأحكام على القصيدة أو الشاعر، إلا أنها في رأيي قد لا تُعدّ مثلبة في حق نقاد العصر الجاهلي، إنما أجدها منقبة في جبين النقد الأدبي إلى يومنا هذا .

٢-التعليلي التفسيري .

وأما المرحلة التي يجدها بعضهم[٣] قد تلت مرحلة البدائية والذوقية هي التعليل والتفسير، ويأتي هذا التطور نتيجة تطور العقل البشري، والحاجة إلى انتقالة في النقد، لتيسير وتفسير ما وراء الأبيات الشعرية من معنى وجمال إلى الآخر.

إذًا هي محاولة الانتقال من التمييز بين الجيد والرديء إلى الجواب عن أسئلة لربما تخطر على عقل الآخر و((هي ماذا قال الأديب أو الشاعر؟ كيف قاله؟ هل

(١) ينظر، مقدمة في النقد الادبي: ٣٥٢ .

(٢) اصول النقد الادبي: ١٢١ .

(٣) ينظر، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: ٨ .

نجح أو فشل؟))[1]، وإذا تتبعنا أجوبة لهذه الأسئلة قد نتلمسها في الأنموذج السابق (أُم جندب) التي استعملت الذائقة الفنية كبداية لإصدار الحكم، ومن ثم توسلت بالشروط التي وضعتها بين الشاعرين في قول شعريهما، وبعدها وازنت بينهما وأصدرت حكما ارتقى فيه شاعر على آخر، بغض النظر من يكون ذلك الذي أصابه الفشل جراء ذلك الحكم.

وقد لا أتفق مع من يقول ان الموازنة التي اجرتها (أم جندب) مع علقمة الفحل وزوجها امرؤ القيس لا تتلائم وروح العصر الجاهلي في النقد الأدبي، إذ إن – أي أم جندب – لا علم لها بالفاظ ومصطلحات مثل الروي والقافية، والتي أعدّها حديثة، وكيفية التفريق بينهما[2]، وهذا لا يتفق مع ما وصلنا من شعر الجاهلية من نضوج وإن كان على مستوى أقل مما هو عليه الآن؛ لاختلاف الوسائل التعليمية والتعليلية، وتداخل المصطلحات العربية والغربية بفضل تلاقح الأفكار والعلوم، وكذلك ما قام به (طرفة بن العبد) من حكم على خاله حينما سمعه يقول:

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره

بتاجٍ عليه الصّعريّة مكدم

فقال: استنوق الجمل لأن الصيعرية تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير[3]، فإن ما قدمه طرفة من حكم يجده بعضهم نوعا من أنواع التعليل والتفسير، وهذا ما لم يرق إلى بعض النقاد وعدّوه من الفطرة والانفعال أو هو نقد ذوقي ذاتي[4].

وأجد أن (علي جواد الطاهر) قد فرّق بين الذاتية والموضوعية، إذ يقول: إن الذاتية قد تميل إلى الأهواء وتصل بنا إلى الكذب، أو عدم الحكم بالصدق، فتحكم

(١) – (م.ن): ٩ .

(٢) ينظر، تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع عشر: ٢٧ .

(٣) ينظر، م.ن: ١٩ .

(٤) ينظر، النظرية النقدية عند العرب: ٣٨ .

على القبيح بالجمال، والعكس صحيح، أما الموضوعية عنده، فهي نقيض الذاتية وهي التجريد من الأهواء، فلا دخل لها بالأحاسيس والحب والميول الاجتماعي[١]، وهذا قد يطبّق على بعض النماذج التي تطرقنا إليها في بداية كلامنا من أن (أم جندب) كانت تطبّق موازنتها بعيدة عن الهوى والحب والميول الاجتماعي، فبهذا هل يمكن أن نقول إن النقد في الجاهلية كان يعتمد التعليل والتفسير؟ وهل يتمتع بالموضوعية ؟؟.

تباين الآراء في بدايات النقد ..

يُعدّ النقد عنوانًا شائكاً، لايستطيع الباحث فيه أن يقف على أرض صلبة ليقول ها هنا ولد النقد، إلا أن بعض من دخلوا هذا المجال من البحث حاولوا أن يحصوا لنا مجمل آراء تبيّن بدايات هذا الفن، ولكل منهم حجته ودليله الذي يعدّه مسوغا لما يصل اليه من نتيجة، وسوف أحاول أن أقف عند أحد النقاد الذين تباينت آرائهم في بدايات النقد، للتحاور في أدلته، وحججه.

طه أحمد أبراهيم :

قد يكون سبب اختياري لـ(طه أحمد إبراهيم) للوقوف على آرائه في أوليات النقد؛ هو وجود رؤية تتوافق مع ما أجدها قد تكون قريبة للصحة بعض الشيء، وأخرى قد لا تتفق .

فإنه يجد أن الشعر الذي وصل إلينا، شعرا «ناضجا كاملا، منسجم التفاعل، مؤتلف النغم»[٢] وهذا حال أغلب شعر الجاهليين الذي وصلنا، وكذلك يتضح عَبر شعر الشعراء الذين أدركوا الإسلام، وعاشوا نصف حياتهم في الجاهلية[٣].

(١) ينظر، مقدمة في النقد الادبي: ٣٤١ .
(٢) تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع عشر: ١٧ .
(٣) ينظر، م.ن: ١٧ .

وهذا دليل على أن الشعر مرَّ بمراحل من النقد تهذّب بها وتشذّب، ليكتمل بهذه الصورة التي وصلت إلى صدر الإسلام، وبهذا تكون مراحل نمو النقد متأخرة عن العصر الإسلامي، فالمهلهل، وامريء القيس، وغيرهم من أعلام الشعر الجاهلي دليل على أن هناك مراحل سبقت هذه الحقبة التي عاش بها هؤلاء الشعراء.

ويردفنا طه أحمد إبراهيم بدليل آخر يبيّن فيه أن النقد بدأ بالنمو مع الشعر، فتاريخ الشعر يبدأ من الحداء الذي يظنه نواة الشعر، وصولا إلى القصيدة المحكمة[1]، وهذه المدة ليست بالقليلة، استطاع بها النقد من تهذيب تلك القصائد حتى تصل إلى هذا المستوى من الاستحسان لدى الآخرين.

وأجده قد وفّق في قوله: «وإذا كانت طفولة الشعر العربي قد غابت عنا، فإن طفولة النقد الأدبي غابت معها، وإذا كنا لا نعرف الشعر العربي إلا متقنا محكما قُبيل الإسلام، فإننا لا نعرف النقد إلا في ذلك العهد»[2] وهذا دليل قد يكون قريبا إلى الواقع الذي بين أيدينا من نصوص جاهلية متكاملة.

وإن لم يوافق هذا القول بعض من يجدوا أن النقد لم يكن موجودا في العصر الجاهلي، فإن ما كان من تمييز الجيد من الرديء من الشعر وتحسين شعر على آخر، وتفضيل شاعر دون الآخر في العصر الجاهلي، عدّه طه أحمد نواة النقد العربي[3]، الذي أخذه من جاء بعدهم وقعّد له القواعد واشترط له الشروط، وأصبح فنا متطورا يعتمد عليه الأدب العربي وغير العربي.

ولكي لا يكون هناك خلط بين النقد قديما والنقد حديثا، وهل النقد في الجاهلية كان قاصرا أو متكاملا كما هو اليوم؟ نوّه لنا طه أحمد بأن «الحكم على الشعر والتنويه

(١) ينظر، تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع عشر: ١٧ .
(٢) م.ن: ١٨ .
(٣) م.ن: ١٨ .

بمكانة الشعراء»[١] هما الميدانان الذي استطاع العرب في الجاهلية أن يجولوا فيه، أما أسلوب الشاعر، ومذهبه، وتأثير بيئته على شعره، فهذا ما لم يتطرق له النقد في العصر الجاهلي[٢]، وهذا دليل جلي على مراحل تطور النقد الأدبي في العصر الجاهلي مرورا بالإسلامي وما بعده من عصور استطاع النقاد أن يضيفوا مواد نقدية تسهل للقارئ الوقوف على ماهيّة النص الأدبي.

إلا أنني لا أتفق معه في أن النقد الأدبي في الجاهلية وجِد هينا يسيرا، يعتمد على الإحساس والانفعال[٣]، وكذلك قوله إن«ملكة النقد عند الجاهليين هو الذوق الفني المحض»[٤]، وهذا ما ذكرته بعض الكتب من أن النقد الجاهلي عماده في الحكم على الذوق والسليقة[٥]، لأن ما أخذته من أنموذج في بداية البحث(أُم جندب) خير دليل على أن الذوق قد يكون عاملا محفزا للنقد، أو هو بداية للدخول في تمييز الجيد والرديء منه، إلا أنها استطاعت أن تأتي بالأسباب التي جعلتها تفضل شعرا على آخر، بعيدا عن الخوف والمجاملة والمحاباة التي تطرق لها ناقدنا الجليل، وهذا ما يجعله نقدا موضوعيا متطورا عن النقد الذي يعتمد على الذوق المحض عند بعض النقاد الجاهليين.

(١) م.ن: ٢٢ .

(٢) ينظر، تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع عشر: ٢٢ .

(٣) ينظر، م.ن: ٢٩ .

(٤) م.ن: ٢٤ .

(٥) ينظر، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: ١٤ .

الخاتمة والنتائج

وفي نهايـة هـذه الرحلة القصيرة في رحـاب أوليات النقد، أجـد أن الآراء التي أُطلقـت هنـا وهنـاك والتي تحـاول أن تحدد هُوية النقـد وبدايتـه أو طفولته كانت متباينـة بـين كاتب وآخر، وقـد يكون هذا البـون واضحا في كاتـب واحد وكتاب واحـد، وإن دلّ هـذا الاختـلاف في الرؤى، والاضطراب في الأحـكام هنا وهناك عـلى شيء، فإنـه يدلّ على صعوبة البت بهذا الأمر الشـائك، الـذي يحدد تاريخ أمة وهُويتها.

ووجـدتُ كذلـك أن للرواة باعا طويـلا في هذه الدوامـة الحلزونية التي دخل فيهـا كل مـن طلب الجواب والدقة في الحكم؛ لأن ما وصل إلى العصر الإسـلامي أثار ريبة كثير من الباحثين؛ بسبب النضج والتكامل في النصوص الشعرية، ما يدل على خضوعها إلى مراحل من النقد والتمحيص.

كما وأن اجتماع الـذوق الفردي والاجتماعي مع الخبرة والموضوعية كان عاملا اساسـيا ومقياسـا أدبيا في توجيه الاحكام وبيان الجنبة الادبية في النصوص عَبر ما لمسناه من احكام لا يمكن تهميشها.

ولا يمكـن ان نغـض البصر عـن اعتماد العـرب قديما في الوقـوف على حقيقية بدايات النقد على استنطاق النصوص الشعرية عبر التحقيق والتدقيق من لدن نقاد واصحاب شأن عارفين ومستفيضين.

وقـد نتفـق مع من يـرى ان الذوق بدايـة طبيعيـة للنقد في العـصر الجاهلي مع الاعتـماد عـلى عناصر مهمـة مثل(العاطفـة والعقل والحـس) إذ عـن طريقهم من الممكن أن نصل الى أحكام من شأنها أن تكون قاعدة رصينة لما جاء بعدها من بناء نقدي متكامل.

ولا جـرم من أن يكـون كل ما وجدناه من أحكام هنا وهنـاك في بدايات النقد

هـي أحكام ذا قيمـة، إلا أنها لم تجد من يقعدها ويقولبهـا ويضعها ضمن عنوانات بارزة كما عليه اليوم .

وإلى مـن يريـد ان يتلمس تطور النقد الأدبي بعد العـصر الجاهلي فقد يجده عَبر الاهتمام بأسـلوب الشـاعر ومذهبه والتأثير البيئي عليه، وهـذا ما لم نجده في بداية النقد او طفولته التي وصلت الينا محاطة بهالة من الضبابية.

إلا أن هـذا لا يمنـع من أن العرب أصحاب ثقافة ودربة ودراية، يقصدهم كل ذي حاجة، ويتزود منهم بما يجعله يفخر بها عنده، وهذا ليس تعصبا للعروبة، وإنما نتيجـة طبيعيـة لمن أراد الله أن يكون نزول كتابه الشريف في بقاعهم، ولا يخفى على ذي لبٍّ أن الإعجاز في القرآن هو اللغة وما تحمله من أسـلوب، اسـتطاع أن يعجز به أهل البلاغة والأسلوب، ولولا أن العرب كانوا أصحاب علم ودراية باللغة لما كان هـذا الكتـاب المقدس ذي قيمـة عندهم، ولو لم يكن الشـعر في الجاهلية يحمل صفـة الكمال نوعـا ما لما لجئ اليه المفسرون للوقوف على ما اسـغربوه من كلام الله تعالى.

وفي نهايـة هـذه الرحلة القصيرة في رحـاب أوليات النقد الأدبي، الله أسـأل أن أكون قد وفقت في ما أقدمت عليه من عمل، فما توفيقي إلا به ومنه، وإن كانت قد أخفقت فمن نفسي، فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، والحمد لله رب العالمين والصلاة وأتم التسليم على نبي الرحمة، وآله الطيبين الطاهرين .

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.
* الاتجاه الأخلاقي في النقد الأدبي حتى نهاية القرن السابع الهجري، محمد بن مريسي الحارثي، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٩٨٩م .
* أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، ط١٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.
* تأريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع عشر، طه أحمد إبراهيم، ١٩٣٧م .
* تأريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول، منشأة المعارف، الاسكندرية، ٢٠٠٢م.
* ديوان أمرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٥، القاهرة، ١٩٥٨م.
* شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني(ت٧٦٩هـ)، محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢٠، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٠م.
* شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل، قدم له:حنا نصر الجتي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٣م .
* محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، إبتسام مرهون الصفار وناصر حلاوي، ط٢، بغداد، ١٩٩٩م .
* مقدمة في النقد الأدبي، علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
* النظرية النقدية عند العرب، هند حسين طه، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١م.